صورة مجملة

صحبنا عمر بن الخطاب فى حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال.

صحبناه فى جاهليته وإسلامه، وفى سره وعلانيته، وفى بيته وحكومته، وفى دينه وثقافته، وفى اتصاله بالله واتصاله بالناس. فإذا الصورة المحملة من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور، وإذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الإنسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه إلى غاية واحدة: وهى إحقاق وادحاض الباطل، ووسمته جميعًا بسمة الجندية المجاهدة التى تحمى الحدود للناس وتحميها من الناس، وهو هو فى طليعة من يحمى وفى طليعة من يحتمى على السواء.

ورسخت فى طوبته خليقة المساواة فى العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التى لا تنفصل منه، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها شخصا آخر غريبا عنه لا فرق بينه وبين أحد فى حدود الله وحرماته، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على ويحك يا ابن الخطاب؟ وماذا يقول عمر! وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدى.. إلى أشباه هذه التجريدات التى تنبعث من خليقة التسوية بين جميع الناس، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس.

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة "باطنه خير من ظاهره" أو كما قال فيه الصديق من كلام فحواه أن مبغضيه هم المبغضون للخير.

وكان له محبون من كراه الناس لا يعبدون بحبه حب أحد من أمثاله، فكن عبد الله بن مسعود يقول: "لو أعلم عمر كان يحب كلبا لأحببته. والله أنى لأحسب العضاه[1] قد وجدت فقد عمر".

(١) جمع عضاهة وهو شجر كبير له شوك. ووجدت، أى علمت.

والغالب فى أمثلا عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم الهيبة ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم فى السير والعلانية، بل تحجب عنهم ألفة الأقربين فى كثير من الأحيان، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق فى عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم إليهم:

أعادك أنس المجد من كل وحشة فإنك فى هذا الأنام غريب

ولكنهم لا يكرهون إلا عن خطأ أو حسد لئيم. وكان عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية فى قلب إنسان، لأنه كان على عظم "شخصيته" مبرأ من العنصر الشخصى، فى معاملة الأصدقاء والخصوم. وإنما ينجم العداء الشديد من الإحساس بهذا "العنصر الشخصى" ومقابلته واصطدام وانتقام.

فالذين كانوا يذوقون إنصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقبا صوالا عليهم، وإنما يشعرون بميزان الشريعة منصوبا على رءوسهم، يتساوون فيه وعمر لو وجب العقاب. فلا موضع هنا للضعينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة.

ولهذا الخصلة ذكره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء.

فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشد ما ابتليا فى حياته بضربات عدله وهيبته، والحطيئة أهجى الشعراء وأبخلهم بالثناء كان رفاقه يذكرونه اسم عمر بعد موته فيرتغب ثم يهدأ فيقول: يرحم الله ذلك المرء!.. ويثنى عليه.

وقد قال عمرو بن العاص إذ رأى عمر يبكى لاستعطاف الحطية إياه فى سجنه: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجب يبكى على تركه الحطيئة!

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلا فلا يكون قتله دليلا على بغضاء "شخصية" أو خلة ترتبط بحياته الفردية. فإنما البغضاء "الوطنية" هى علة التآمر على قتله بين المغلوبين فى ميدان القتال على التحقيق، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذاكره فإنما فى أصلها "بغضاء وطنية" كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية، وإن تطاولت الأيام.

فالمعلوم أن عمر مات بطعنات من خنجر فيروز "أبى لؤلؤة" من سبايا الفرس بالمدينة، وأن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا إليه مولاه المغيرة بن شعبة لأنه فرض عليه خراجا درهمين فى كل يوم، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه أنه "نجار نقاش حداد". فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال، وقال له: قد ابلغنى أنك تقول: "لو أردت أن أمل رحى تطحن بالريح فعلت" وطلب إليه أن يصنع رحى على هذه الصفة، فقال له: لئن سلمت لأعلمن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب.... ثم انصرف وهو يقول: "وسع الناس عدله غيرى!." فقال عمر لسامعيه: لقد توعدنى العبد آنفا.. ولم يؤاخذه بهذا الوعيد، بل كان من نيته أن يلقى المغيرة ليخفف عن مولاه.

هذا هو السبب الظاهر الذى لا يستر ما وراءه، لأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا منفذاً للكيد الذى اتفق عليه كثيرون، وقد روى عبد الرحمن بن أبى بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدثون. فلما فاجأهم قاموا وقوفا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه، وهو الخنجر الذى حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه أن أخذ بفعلته.

والهرمزان أمير زالت عنه الإمارة بعد ذهاب الدولة المجوسية، وجفينه من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس، وأبو لؤلؤة فارسى الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جيء إلى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رءوسهم وتوعد المسلمين أجمعين.

وقد كان شاركهم فى هذه المؤامرة يهودى مغلوب تظاهر الإسلام وهو المسمى بكعب الأحبار. ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة، فذهب إلى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختار ولى عهده لأنه ميت فى ثلاثة أيام... فسأله عمر: وما يدريك؟ قال: أجده لتجد عمر ابن الخطاب فى التوراة؟". فأشفق الرجل أن ينكشف دجله وقال: بل أجد صفتك وحيلتك وأنه قد فنى أجلك. ثم كرر له النذير مرتين فى اليومين التاليين.

فعمر إنما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لا شك فيها، وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذى يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة القصاص الذى يحيق بهم إذا جهروا بما دبروه، أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير.

إن مقتل عمر أحرى أن يعد جزءا من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية نختم تلك السيرة دون أن نضيف إليها.

فقد تمثلت فى مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت فى جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله، فكان عمر الصريع قدوة فى الشجاعة وتقديم الواجب والإيثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير. كما كان فى أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير وكان رضى الله عنه ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدى ما استطيع أداؤها ثم لا معنى لها إذا فزع من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها. فبعد الحاجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوم من البطحاء التى عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يديه إلى السماء، ودعا الله: "اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك، واجعل موتى فى بلد رسولك".

ومضت أسابيع فخرج يوما قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوى الصفوف للصلاة، فلم يؤم الناس حتى فاجأه القبائل بطعنتين إحداهما القبائل بطعنتين فى كتفه والأخرى فى خاصرته، وقيل ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة وقد خرفت الصفاقين[1] قضى به نخبه رحمه الله، وقيل بل ست طعنات منها تلك الطعنة القاتلة.

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم فى موعدها، وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس.

ثم جعل يغنى عليه ولا بنيته إذا دعوه، حتى قال عار فيه: إنكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياه.. فنودى: الصلاة.. الصلاة! فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات: "الصلاة! ها.. الله. إذن." ثم قال: لاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة.

ولم يهمه من قتله بعد أن حمل إلى منزله إلا أن يعرف المظلمة كان قتله أم لبغى من القاتل؟ فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال: ولم قاتله الله وقد أمرت به معروفًا ثم حمد الله قائلا: "الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة له قط. ما كانت العرب لتقتلنى."

وهمه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند الله. فأمر ابن عباس أن يخرج إلى المهاجرين والأنصار يسألهم: أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى؟ فصاحوا معلنتين: "لا والله. ولو وردنا أن الله زادنى فى عمره من أعمارنا".

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة، فنهاهم أن يبكوا عليه.. ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا أدم هو أم النقيع

---

(١) صفاق البطن وهو الجلد الباطن عند سواد البطن.

خرج بلونه.. فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد، فأشار عليه الطبيب أ، يعهد.. فقال:

"لو قلت غير هذا لكذبتك".

وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه: ويحكم أيها الناس، أأنظر فى أمر نفسى قبل أن أنظر فى أمور المسلمين؟.. فلما قال الطبيب مقالته أخذ فى تدبير المهم من شئون الدولة وأولها الخلافة، فجعلها شورى ليستقر بها القرار ما استطيع، ونجا بأهله منها وهو يقول: "..أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى، وأن نجوت كفافا[1] لا وزر ولا أجر إنى لسعيد".

وهو فى هذا كله لا يحالف ديدنة من صراحة ولا يكتم طبيعة أهل الفناء من حب الحياة، ولا يخفى "إن للحياة لنصيبا من القلب إن للموت لكربة!" ولكنها لم تمنعه قط أن يعطى الحق حيث وجب للموت أو للحياة.

فلما فرغ من شئون الدولة نظر فى أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده، وأقبل يطمئن فى جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا. فدعا بابنه عبد الله ينطلق إلى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام.. ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرا.. ثم يستأذنها أن يدفن إلى جوار صاحبيه يعنى النبى عليه السلام وخليفته الصديق.

ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها واستأذنها فأذنت وقالت:

كنت أريده لنفسى، ولأوثرنه به اليوم على نفسى!

فلم يكفه هذا حتى يستوثق كله الاستيثاق من رضاها، فعاد يخاطب ابنه: "يا عبد الله بن عمر بن الخطاب، فإن أنا قبضت فاحملونى، وإن

---

(١) نجوت كفافا: أى، لا لى ولا على.

ردتنى فـردنى إلى مـقابر فـقل: يسـتـأذن عمـر بن الخطاب، فـإن أذنت لى فأدخلنى، وإن ردتى فردنـى إلى مقابر المسلمين، فإنى أخـشى أن يكون أذنها لى لمكان السلطان".

قال شـهود دفنة: "فلمـا حمل فكأن المسلمـين لم تصبهـم مصيـبة إلا يومئذ".. فـارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلون أو منهم بظلم، فـما دلها شيء على عظم فضله ولا عظم الحاجة إلى العدل فيها كما دلها هذا الختام.

***

obeikandl.com